يكتنفهما . ولكننا لا نعلم علاقة تلك القابلية بالجنس ولا نسبتها اليه . فلعل وراثة العادة والاستعمال ينطبع تأثيرهما في النسل او ان قابلية الانفعال والانطباع تزداد بازدياد التزاوج بين فئات اخلاق المختلفة

واما مسئلة اصلاح النسل (Eugenics) فلا ريب ان هناك « عملية فرز » بين الناس واسعة النطاق متصلة الحلقات حتى في البلاد المتمدنة . فقد ظهر من احصاء ان خمسين طفلاً من كل مئة طفل يولدون في انكلترا لا يعيشون ليتناسلوا وان نصف الذين يعيشون ليتناسلوا — او ربع المجموع — يلدون ثلاثة ارباع الجيل الذي يليهم . وهذا « الفرز » انتخابيٌّ من بعض الوجوه ولكنَّ نتائجهُ لا تزال مجهولة . ولا يعلم هل تفضي الى المناعة من بعض الامراض او القدرة على عيشة قليلة الحركة في المدن . فكيف يمكننا والحالة هذه ان نتخب الصنف الذي يفضل غيرهُ للتناسل ولو حصرنا انتخابنا في بلد واحد . ولا يبعد ان يكون نسل طرفين أُصلح احدهما دون الآخر خسيساً كما يقولون ولكن لا مناص لنا من ذلك ومن بقاء مسئلة الجنس والنسل حيث هي الآن ما لم يصلح الطرفان تماماً . وكذلك لا يبعد ان يكون التزاوج بين الاجناس المختلفة مفضياً الى ازدياد التوالد كما يقول البعض . ولكن اذا كانت نتيجة ذلك التوالد ازدحام هذه الكرة بصنوف واطئة دنيئة فلسنا اقرب مما كنا الى حل هذه المشكلة

الانتخاب الطبيعي

وفلسفة الالمان في الحرب

للالمان ولع شديد بالفلسفة وهي عندهم فن عقلي تهتز به اوتار قلوبهم كما تهتز بالانغام الموسيقية وقد بلغ بعضهم فيها حد الاعجاز فيغلق على القارئ فهم معانيه وادراك مبادئه فيتوهم ان الكاتب في منزلة سامية من المعرفة لا يدركهُ الا الراسخون في العلم . وقد قيل عن احدهم انهُ اذا راجع ما كتب تعذر عليهِ فهمهُ لان الصور الخيالية اذا مازجت الحقائق العلمية شوهتها وافسدت مبادئها ولهذا فانغلاق معانيهم على افهام العامة ناجم من خلط الاوهام بالحقائق ومن توغلهم في عالم الخيال وخوضهم في بحر التخمينات . وفي هذه العجالة لا نتولى البحث في كل مبادئهم الفلسفية لكشف النقاب عن اغلاطهم وشرودهم عن الحقيقة بل نقتصر على نقد فلسفتهم في الحرب بحيث يبين للقارئ شذوذهم العقلي الذي ادّى الى غرورهم واغراق العالم في بحر من الدم طغى عجاجهُ فهدم معالم الانسانية وشوّه محاسن المدنية وحط كثيراً من معالم العلم والادب

يقول برنهاردي « ان الحرب عمل عادل لانهُ ينطبق على مبادئ البيولوجيا (علم الحياة) وبما ان الحرب ناموس بيولوجي فالامتناع عنها غير مستطاع عدا عن انها واجب ادبي وعامل ضروري للتمدن »

نقول ان تفنيد هذا الرأي لا يحتاج الى عناء كبير ودرس طويل ويظهر فسادهُ اولاً من ان بروسيا امة حربية من اول نشأتها وقد استعدت لهذه الحرب استعداداً لم يسبق لهُ مثيل في التاريخ بما هيأت لها من وسائل الهلاك فجعلت النواميس البيولوجية مبرئة لعملها ولا غرابة اذا تمكن هذا الاعتقاد في اذهان الناشئة التي تعدها السلطة الحاكمة للحرب ليكون لها منها درع منيع يقواها العقلية فوق ما هيأت من القوات المادية

ويقول كثيرون غيرهُ من فلاسفة الالمان « ان الحرب تنازع بقاء وانها نتيجة الانتخاب الطبيعي وبما ان الامة الالمانية امة قوية وجب ان تنازع الامم الضعيفة حياتها حتى يفنى الضعيف ويبقى القوي جرياً على هذا الناموس الطبيعي »

يظهر فساد هذا الزعم من تفهم الانتخاب الطبيعي وادراك عمله الحقيقي فمبدأ الانتخاب الطبيعي يقوم على قاعدة تكاثر النسل فاذا كثرت المواليد كما في الاحياء الدنيا هلك الجانب الاكبر منها الذي لا يصلح للحياة وبقي القليل الصالح للحياة فناموس الانتخاب هو بقاء الاصح كما يقول سبنسر . وهنا يظهر خطأ الالمان في تفسير هذا الناموس لانهم لم يقولوا ببقاء الاصلح بل ببقاء الاقوى وفاتهم ان القوة البدنية ليست هي الاصلح للحياة لاننا اذا حبسنا اسداً في زريبة مسيَّجة مات فيها جوعاً واما اذا حبسنا انساناً فقد يعيش لانهُ يفتكر دائماً بوسائل النجاة وحفظ الحياة . واذا جمعنا في الزريبة الاسد والانسان فالاسد يفترس الانسان مع انهُ ليس اصلح منهُ للبقاء . فاذا جعلنا الانتخاب الطبيعي مبرراً للحرب وجب ان نعتبر تنازع البقاء تنازعاً افرادياً اي صراعاً بين شخص وآخر وهذا من السخافة بمكان كما لا يخفى

عرفنا من علم طبقات الارض ان انواعاً كثيرة من الكائنات الحية انقرضت بموت بعضها وتنوع البعض الآخر بتطبيق كيانهِ على ظروف وجوده فبقي حياً متنوعاً ومختلفاً عن اصله وذرية تلك الانواع الباقية هي الكائنات التي تعيش الآن على سطح الارض . هذه هي الحقيقة ولا حاجة للبيان ان الاحياء التي غلبت عاديات الايام وعاشت الى الآن هي الاصلح للبقاء ولا يمكن ان يكون بقاؤها نتيجة تغلب الافراد على العوامل الكثيرة التي عملت في ادوار التقلبات الكثيرة التي مرت بها الكرة الارضية كتقلبات الحرارة وتنوع العوامل الكيماوية وجزر البحار وغيرها من العوامل الكبرى العمومية . ولم يكن ولا يمكن ان يكون في وقت من

الاوقات ان ما تعمر به الارض من الكائنات الحية كان نتيجة تنازع انفرادي اي قتال بين شخص وآخر وقتل الواحد وبقاء الآخر . واذا كان لهذا النوع من تنازع البقاء بعض العمل فهو قليل لا يعتد به ولا اهمية له . ومن المعلوم الذي لا ريب فيه ان الحيوانات الكبرى المفترسة وذات القوة الفائقة قد انقرضت وما بقي منها سائر الى الانقراض

ففلسفة الالمان اذاً في الحرب لا تستند الى ركن علمي صحيح لان البيولوجيا لا تدل اقل دلالة على جوازها وتجيزها وليس في نواميسها ما ينطبق في الحالة الحاضرة من العلم على الروابط التي تربط الامم بعضها ببعض . وناموس الانتخاب الطبيعي اقل كل النواميس الطبيعية دلالة على ذلك لان عوامل التمدن تعمل على الدوام في تنويعه وابطال عمله كما يتضح مما يأتي بيانه

عند ما يكتسب نوع من الانواع نموّاً كافياً من العقل يؤهله لنوع من الاجتماع تظهر فيه حينئذٍ معرفة ما نسميه بالواجب . اما الشعائر والعواطف النبيلة التي في الانسان كالحب والحنو والكرم وغيرها فانها لم تظهر فيه فجاءة بل سارت مرحلة فرحلة حتى بلغت الدرجة السامية في الانسان المتمدن الراقي . فقد كانت في البداءة متجهة الى الاولاد وهم اطفال يحتاجون الى مساعدة والديهم ثم امتدت الى افراد العائلة الى الاقرب اولاً ثم الى الابعد واما احترام الشيوخ فهو من مراحل التمدن الاخيرة لان الامم المنحطة في سلم المدنية لا تزال تقتل شيوخها . ثم امتدت الى العشيرة فالقبيلة فالأمة . وقد قضت الضرورة بذلك بسبب تكاثر النسل الذي دعا الى اجتماع فئات كبيرة في مساحة ارض واحدة يستثمرونها ويعيشون من نتاجها وحاصلاتها فكان من الضرورة ان يتولد في افراد تلك الفئة المجتمعة الشعور بالتضامن نشأ من هذا شعور اكبر واعم وهو الميل الجنسي وحب الوطن ومما هذا الشعور فصار اكبر واعم ودعا الى حب الانسانية واحترامها وهذه آخر مرحلة من مراحل الامم الكبرى وهي مرحلة الرقي والنمو ويعرف مكانها من الامة بكيفية استعمارها

كما ارتقى التمدن والعلم زادت قوة الانسان بالتحكم في الطبيعة وهذه القوة تظهر باستخدام القوة الطبيعية بالمعنى المفهوم منها في علم الطبيعة اي باصطناع الآلات القوية وحفر الترع وخرق الجبال بالانفاق وتظهر ايضاً في الكائنات الحية الحيوانية والنباتية وبها يقوم الانتخاب الصناعي مقام الانتخاب الطبيعي فيستخدمه الانسان لفائدته ومنفعته لان كل النوعات الحيوانية والنباتية التي يستخدمها هي نتيجة الانتخابات الصناعية ولكنها ليست ثابتة وتفقد اذا فقد الانسان او لم يوالِ الاعتناء بها . ومن يلتفت الى الحدائق التي يعتني بها يندهش مما يرى فيها من النباتات الجميلة والازهار البديعة والبقول المفيدة والفاكهة الطيبة وهي كلها

عمل الانتخاب الصناعي الذي يتولاهُ الانسان ويزول ويختفي بعد اهمال الحديقة وعدم الاعتناء بها . فالانسان الذي لا يركن الى الانتخاب الطبيعي في الحدائق ويستعيض عنهُ بالانتخاب الصناعي لا يعقل ان يترك نسلهُ تحت رحمة هذا الانتخاب الاعمى والاَّ لما كان للطب وعلم الصحة لزوم لتقليل معدل وفيات الاطفال ولجاز ان يترك العجزة والمعوهين عرضة للهوان والعذاب . فاذا لم يجز ذلك والالمان لا يجيزونهُ لانفسهم أفيجوز تطبيق الانتخاب الطبيعي على الامم المتمدنة ؟ ذلك لعمر الحق لا يصدر الاَّ من ادمغة مختلة التركيب وفاسدة العلم

ليس من سداد الرأي ولا هو في شيء من العلم ان تكون القوة ركناً للانتخاب الطبيعي لان قوة الفرد لا تدل على كونهِ الاصلح للبقاء فاذا تصارع باستور وجونسون فلا ريب في ان باستور يكون مغلوباً كما انهُ لا ريب في انهُ اصلح كثيراً للبقاء من جونسون لانهُ خدم العلم والانسانية خدمات جليلة ومفيدة عدا عن ان القوة البدنية في الحرب ليست العامل الوحيد للنصر ولان النصر يستوجب صفات ممتازة من العقل والاخلاق

يزعم الالمان انهم يمتازون بصفات سامية لا يتحلى بها شعب ذو رخاء وترف كالشعب الفرنساوي وانهم اذا اتخذوا في محاربتهِ طريقة الارهاب ذلَّ حالاً وسحقوهُ بسهولة وقد اخطأوا في هذا كما اخطأوا في ما سبق لانهم خلطوا بين التمدن والانحطاط فحسبوا ان الفرنساويين سائرون الى الانحطاط والانقراض رغم كونهم يرقون في السلم الاعلى والاشرف من المدنية واذا كانت فئة من الامة الفرنساوية تمثل بمقامها الاجتماعي الامة بمجموعها وظهرت فيها بعض ظواهر الانحطاط كعدم الكفاءة والاختلاس والانغماس في الملذات وتبرئة المجرمين فليس ذلك دليلاً على انحطاط الامة بكاملها لان رخاء الامة الفرنساوية كان نافعاً لها في ازمتها الشديدة اذ ادركت جيداً وسريعاً الخطر الذي يهدد كيانها فهبت للدفاع عن نفسها بروح واحدة وانتبهت فيها روح الحماسة والشجاعة الكامنة في دم ابنائها ويعترف لهم بها العالم بالاجماع وقد ظهرت تلك الروح جلية بقوة دفاعهم وحسن بلائهم

رسخ في ذهن الالمان ان قياد فرنسا قياد شخصي متطرف وان روح الوطنية فيها معدومة وقد اخطأوا في هذا ايضاً لان تلك الروح الشريفة روح الوطنية كانت كامنة بما كانت عليه الامة من الترف والنعيم فانتبهت بمنبه الخطر الداهم فعادت الى تقاليدها المعروفة وقامت قومة واحدة تنتصر للحق والانسانية واظهرت بخدمة هذا المبدإ كل ما لها من الصفات النبيلة التي يعترف لها بها العالم بالاجماع واخطأ ظن الالمان بضعفها او زوالها . وكان من حدة ذكاء الفرنساويين انهم طبقوا احوالهم على حالة الحرب الحديثة وهم لم يكونوا مستعدين لها فاعدوا

عددهم من ذخائر واسلحة الى حدٍ من الاتقان ربما فاق حد عدوهم بدون ان يلجأوا الى الوسائل المحرمة التي استعملها العدو

ومن اغلاط الالمان المنطقية ان الفرنساويين بما هم عليهِ من الرخاء والرفاه لا يستطيعون الثبات طويلاً بل يتولاهم الضجر والقنوط لان الثبات على الحالة الحاضرة من الحرب العنيفة القائمة الآن لا ينطبق على حال بها الرفاهة وفاتهم انهُ لا يمكن لامة ان تبقى على سكينتها ورخائها بعد ما يحل بها ما حل بفرنسا من الدمار ولاسيما اذا كانت ذات انفة وشمم كالامة الفرنساوية

وسنرى بعد هذه الحرب ان المستقبل لا يكون للامة التي اثير الحروب وعجلها غايتها العظمى ووجهة قوتها المعنوية والبدنية لان كل النظامات الاجتماعية تقضي بالسير الى الامام في سبيل سعادة الانسان ولان الانسانية تأبى الرجوع الى الوراء الى ادوار الهمجية والبربرية فالامم التي يجب ان تنقرض ليست الامم التي تكره ان تخصص كل قواها ومجهوداتها للامور الحربية . فلا تنقرض الامم الضعيفة والصغيرة بل الامم التي تحاول العبث بمبادىء الانسانية كالاستقامة والصدق والمحافظة على حسن العلاقات بين الامم والتي تغدر وتذبح وتنهب وتدمر وترغب في الاستيلاء على العالم بهذه المبادىء وهذه الوسائل

يحاول فلاسفة الالمان ان يستخرجوا المبادئ الادبية من الناموس البيولوجي فهم يجهلون البيولوجيا والادب معاً او انهم يغالطون في تفسير كلمة الناموس فيخلطون بين معناهُ العلمي ومعناهُ الاجتماعي فالنواميس العلمية ثابتة لا تحتاج لتطبيقها الى وساطة الانسان واما النواميس الادبية والاجتماعية فاتفاقات وضعت لتنظيم الحياة على نظام مشترك . واذا باحت الجسارة من كبار امة الى القول بوجوب ارتكاب الجرائم وعدم استنكار الاعمال الخارجة عن حد الادب كان من الواضح ان تلك الامة قد آلت على نفسها ان تخرج من دائرة الانسانية وحق عليها القول انها سقطت الى اسفل دركات الانحطاط لان الانسان في دور الهمجية كان يفرح باعماله الهمجية ليرضي بها غريزتهُ ولكنهُ لا يدعي الادب ولا يحاول ان يقنع سواه بحسن عملهِ . واما همجية شعب متمدن يدعي بلوغ المنزلة السامية من الرقي بل يتمجح بالكمال وينسب لسواهُ النقص فوصمةٌ عليهِ لا تمحى لان همجيتهُ تكون سبباً لخسارة المدنية خسارة فادحة قد لا يرجى تعويضها كما حصل في هذه الحرب المشومة من خسائر النفوس والنفائس التي لا تقدر بثمن ولا يرجى تعويضها

الدكتور
امين ابو خاطر